

## نقد مفهوم السلطة عند ميشال فوكو

### Criticism of Michel Foucault concept of power

كعبش محمد: طالب دكتوراه

جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

تاريخ قبول المقال: 27/02/2019

تاريخ إرسال المقال: 07/10/2018

#### ملخص

قد يكون ميشال فوكو من الفلاسفة القلائل الذين جعلوا من السلطة جوهرًا لمشروعهم الفكري، فإذا كنا نتحدث عن نيتشه مثلًا فنحن لا محالة سنتحدث عن أقرب المفهومات إلى شرح فلسفته وهي القوة، وبمثل ذلك نتحدث عن هيدغر في علاقته بالوجود، سارتر وعلاقته بالحرية، كانط وعلاقته بالنقد وهكذا دواليك، على أن البحث المفارق والذي جعل من فوكو فيلسوف السلطة بامتياز يكمن في الانتقال بمفهوم السلطة من كونها جوهرًا متعينا يمارس من أعلى إلى أدنى كما يعكسه التداول السياسي للمصطلح إلى جعلها علاقة قوة غير متحيزة ولا مملوكة. **كلمات مفتاحية:** سلطة، حقيقة، مراقبة، الجسد، استراتيجية.

#### Abstract

Michel Foucault may be one of the few philosophers who have made power the essence of their intellectual project. If we talk about Nietzsche, for example, we will inevitably talk about the earliest concepts to explain his philosophy of power. Like this we talk about Heidegger in his Relationship to existence, Sartre and his relation to freedom, Kant and his relation to criticism Thus, the paradoxical research that made Foucault a philosopher of power with distinction lies in the transition of our concept of power from being a manipulative essence practiced from the top down, as reflected in the political circulation of the term to make it an unmediated and unconnected power relationship moving from nowhere and spreading its influence

in all directions, and this is It gives them creative energy for empowerment and domination, but all resistance to it ends in utter failure.

**Keywords:** authority, truth, control, body, strategy

## المقدمة

كغيره من المصطلحات الفلسفية المشبعة الدلالة يظل مفهوم السلطة واحدا من أكثر هذه المصطلحات التي تتدّ عن المفهمة بتعبير ألان تورين، فهو مثار اختلاف وتمايز رؤى كبير لدى العلماء والفلاسفة، يشفع لذلك كثرة المقاربات ووجهات النظر التي لا تستبقي احتمالا قاراً حول معنى السلطة، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى الاتساع المفهومي والتاريخي لهذا المصطلح، فمن جهة التاريخ لا يمكن اعتبار الممارسة السلطوية عند اليونان هي عينها في القرون الوسطى، والبون أكبر في المجتمعات الحديثة التي تسير بالديمقراطية وثقافة القانون وحكم المؤسسات، كما أن المقايسة السلطوية للقبيلة عند العرب هي غيرها في صدر الإسلام أو العصور التي تلتها. وسواء في ذلك تعلق الأمر بالنظر إلى الشعب كمصدر للسلطة أو خاضع لها، أو تعلق بطبيعة السلطة في ذاتها من حيث المفهوم ومن حيث الوظائف ومدى التمييز بين سلطة الدولة وسلطة الحاكم، إضافة لذلك فإن اتساع حقل الدراسة يجعل من السلطة سلطات، فنحن اليوم نتحدث عن سلطة للثقافة وسلطة للتاريخ وسلطة للتراث وللعرف والجغرافيا والإعلام والصورة والحقيقة والتأويل... الخ بالدرجة نفسها التي درجنا عليها عند الحديث عن السلطة السياسية علاوة على اختلاف وظائفها وحدود تدخلها.

لذلك يأتي التنظير الفلسفي لمصطلح السلطة متعالياً على جزئيات التمثيل الوصفي الذي يستحضر السلطة بمفردات التعيين والنوع والأصل، ليتعاطى معها بنظرة شاملة وضرورة مطلقة بغض النظر عن مصدر تلك الضرورة، فالسؤال: هل السلطة تستمد مشروعيتها من إرادة الشعب لها أو ضرورة يفرضها الحاكم على المحكوم؟ هو في جوهره سؤال فلسفي بغض النظر عن تلبسه بضرورة المكان والزمان الذي يخص هذه السلطة، إضافة إلى أن التوظيف الفلسفي للمصطلح يتصف بالطابع العقلاني والإشكالي.

بالنسبة لفوكو تشكل السلطة مشروع حياة، وإذا قلنا إن مشروع هو مشروع سلطة بالأساس فلن نكون مزيدين على ما كتبه طيلة حياته، فهذا الموضوع الأثير إلى قلبه قد حاز جلّ اهتمامه لما يربو عن ربع قرن من الزمن، يكون بذلك قد تضرد عن المتقدمين أو المتأخرين لا في العناية بموضوع السلطة في حد ذاته فحسب، وإنما في

الطرح المفارق لها بحيث يسمح لنا بالقول: إن دراسة السلطة في بعدها العلائقي قد ولدت توّاً - بعد نيتشه - مع ميشال فوكو. وهذا بدوره يستدرجنا إلى مباشرة الإشكال الذي يحاول هذا البحث طرحه والإجابة عليه.

### إشكالية البحث

ما الذي يعنيه فوكو بمصطلح السلطة؟ أو ما الإضافة التي جاء بها في تحديده لمعناها؟ وماهي أهم التشكيلات التي تمظهرت من خلالها السلطة في أوروبا؟ ثم إذا كان الاحتكار والحجب والقمع سلوكا فطريا في السلطة وأساسا لوجودها وديمومتها، فماهي العلاقة التي تقيمها مع المقاومة الموجودة أصلا أو المحتملة الوجود كفعل تقويضي لعمل السلطة؟

يقضي منا العرض المنهجي لإشكالية البحث التوسل بالمنهج التحليلي الذي يبدو أقرب المناهج في تشريح مفهوم السلطة عند فوكو، فهو يتيح لنا تفكيك منطوق نص فوكو إلى وحدات صغيرة قبل إعادة تركيبه من جديد، إضافة لذلك فقد جاء استعمالنا للمنهج النقدي - على قلته - ضرورة منهجية وأكاديمية يفرضها البحث وتقرها الروح النقدية.

### في مفهوم السلطة

يعترف فوكو أولا أن مفهوم السلطة ملتبس في أصل وضعه وليس شفافا كما يعكسه التداول السياسي والإعلامي لهذا المصطلح، شأنه في ذلك شأن العديد من المفاهيم الفلسفية، لذلك فقد اعتبر مصطلح السلطة مضنّة لسوء فهم كبير فيما يتعلق بتحديداتها أو شكلها أو وحدتها، وانطلاقا من ذلك اجتهد في تحديد ملامحها الكبرى عبر الانتقال من سؤال الماهية إلى البحث عن الطريقة والاستراتيجية التي تمارس بها، هذا هو جوهر عمل فوكو... وعندما سئل عن هذا التوجه الجديد أجاب قائلاً: "عندما شرعت في الاهتمام بالسلطة بشكل صريح لم يكن غرضي هو أن أجعل من السلطة مادة أو سائلا مؤذيا بهذا القدر أو ذلك ينساب داخل الجسد الاجتماعي وأن أطرح السؤال عما إذا كانت تثبتق من أعلى أو من أسفل، لقد أردت ببساطة أن أثيرسؤالا عاما وهو: ما المقصود بعلاقات السلطة؟... تم يضيف قائلاً: "إن السلطة أساسا هي مجموعة علاقات، أي أنها تسمح للأفراد وللكتائنات الإنسانية بربط علاقات فيما بينها ليس على هيئة إيصال للمعنى ولا على شكل رغبة فحسب، بل أيضا على شكل يسمح لكل طرف بأن يؤثر في الآخر، أو إذا شئتم بأن يحكم على الآخر مع إعطاء هذه الكلمة مدلولا موسعا، فالآباء يحكمون أبناءهم والعشيقّة

تحكم عشيقها والأستاذ يحكم... إلخ، نحن نحكم بعضنا بعضاً أثناء تبادل الحديث عبر سلسلة من الخطط (التكتيكات) وأعتقد أن مجال هذه العلاقات مهم جدا وهذا ما أردت إثارته كمشكل".<sup>1</sup>

هذا النص يضعنا مباشرة في قلب المعالجة الفوكوية للسلطة باعتبارها جملة من العلاقات والتكتيكات المحايثة التي تشرع لطريقة الحكم لا بين الحكام وأفراد المجتمع فحسب بل وبين الأفراد بعضهم ببعض، إنه نوع من الفيض الدلالي الذي أصبح به مصطلح السلطة متاخما لشتى العلاقات بين الأفراد والمؤسسات داخل المجتمع. هناك سؤال فقط يستحق حسبه سلطة السؤال ومشروعية الحرج غير الاستفهاميين التقليديين: ما هي السلطة وما مصدرها؟ هذا السؤال هو: كيف تتحقق السلطة؟ أي السؤال عن السلطة وهي متلبسة بالممارسة بعيداً عن السؤال الذي يتراجع بها عما هي كائنة عليه إلى غير كينونتها تلك في تسلسل لا ينتهي أبداً أو قد ينتهي إلى ما ليست إياه.

عموماً فإنّ هذا السؤال يملك وجهة نقلنا من الاستفهام بـ "ما الموصولة" إلى "كيف" الملايسة والمحايثة التي تنزلنا من السلطة إلى السلطات، إلى شبكة الممارسات اليومية، لذلك فإنّ فوكو لا يلزم نفسه بالبحث في ماهية السلطة أو تحديد طبيعتها من حيث الأسس الفلسفية أو الأنطولوجية التي تقوم عليها، وإنما يعنى بها من خلال الرؤية الوظيفية التي تجعله يهتم في المقام الأول بتحليل العلاقات أو الآثار التي تتشكل كحصيلة لمجموعة من الأفعال وردود الأفعال لصدى القوانين والمؤسسات " وهذا ما يفترض استبعاد كل أشكال السلطة المتبلورة التي تربط علاقات القوى بالتصورات القانونية البحتة وبكل الرؤى التي تجمعها أو تشيئها في نظام الحكم وأدوات الهيمنة والسيطرة كمؤسسات الحكم والإدارة أو حتى بعقلانية خفية أو غائبة للتاريخ".<sup>2</sup>

يقول في حوار له مع فونتانا: " لست ترى من أي جهة من اليمين أو من اليسار كان يمكن طرح مسألة السلطة، في اليمين لم تكن مطروحة إلا بقاموس الدستور والشرعية... إلخ، إذن بقاموس قضائي، وطرحها من ناحية اليسار كان بمعاني جهاز الدولة، أما الطريقة التي كانت تمارس بها ماديا بالتفاصيل بخصوصيتها وتقنياتها وتكتيكاتها فلم يكن أحد يبحث عنها".<sup>3</sup>

إذن فمدار بحثه هو ردم هذه الفجوة المفهومية والفراغ النظري الذي حبس علاقتنا بالسلطة في صورة القانون أو الدولة أو الطبقة أو كتعاقد أو هيمنة، أما

السلطة كممارسة واستراتيجية تتوزع عبر كامل الجهاز الخطابي والمجمعي فهو ما يقصده ويشير اهتمامه.

هناك نص مطول له نوره كاملاً لأهميته يعرف فيه السلطة بقوله : " كلمة سلطة هذه قد سببت الكثير من سوء الفهم، سوء فهم يتناول هوية السلطة وشكلها ووحدتها، بكلمة سلطة لا أعني السلطة أي مجموعة المؤسسات والأجهزة التي تضمن خضوع المواطنين في إطار دولة ما، كذلك لا أعني بكلمة سلطة نمطاً من الإخضاع الذي هو على العكس من العنف إنما يتخذ شكل قاعدة وأخيراً لا أعني بكلمة سلطة نظاماً عاماً من جهة الهيمنة يمارسه عنصر أو مجموعة على عنصر آخر أو مجموعة أخرى تخترق مفاعله الجسم الاجتماعي كله عبر انحرافات متتالية: فالتحليل من منظور السلطة لا ينفي أن نفترض أن سيادة الدولة أو شكل القانون أو الوحدة الكلية لهيمنة ما هي معطيات أولية إنما هي بالأحرى أشكال السلطة النهائية، بكلمة سلطة يبدو لي أنه يجب أن يفهم قبل كل شيء تعدد موازين القوى المحيطة للمجال الذي تمارس فيه والمكونة لتنظيمها واللعبة التي تحاول هذه الموازين أن تعززها وتقلبها عن طريق مجابهات ونزاعات متواصلة، وكلمة سلطة تعني أيضاً الدعم الذي تلقاه موازين القوى هذه في بعضها بعضاً، بحيث تشكل سلسلة أو نظاماً أو بالعكس التفاوتات أو التناقضات التي تعزل بعضها عن البعض الآخر، أخيراً تعني كلمة سلطة الاستراتيجيات التي بواسطتها تفعل موازين القوى فعلها والتي تتجسد خطتها العامة أو تبلورها المؤسسي في أجهزة الدولة وصياغة القانون والهيئات الاجتماعية"<sup>4</sup>.

يحدد فوكو معنى السلطة من خلال هذا النص إيجاباً وسلباً، لكنه يشير قبل ذلك إلى أن الاستعمال المبتذل للسلطة لا يحجب عنها جانب اللبس كغيرها من الكلمات التي يستعملها في مشروعته مثل: اللغة، الخطاب، المعرفة وهلمّ جراً، وللحد من هذا اللبس فهو يرفع عنها جملة من العلامات التي أصبحت تشكل دالاً للسلطة أو مدلولها لها. وأول ما ينفيه عنها هو التصور القانوني الذي يجعل منها مجموعة من المؤسسات والأجهزة، أي أنه ينفي أن تكون السلطة معادلة للدولة وإن كانت الأخيرة أكثر أشكالها اتساعاً، كما أنه يخرق القاعدة التي تستدل على وجود السلطة وتؤشّر لها بالعنف والإخضاع، أي النظر إلى السلطة من جانبها السالب فقط، فهناك فضائل سلطوية كثيرة ليس أقلها دور الإنتاج، إلا أن ذلك لا يعني إهماله للعنف كممارسة أو كحل بديل، أما من حيث ما هي - أي السلطة - أو في جانبها الموجب، فإنها تُحدد بجملة صفات كالآتي:

## أ- السلطة مجايشة

معنى ذلك أنها لا تتلبس بمكان أو صفة (مؤسسة، جهاز، هيكل...الخ) سواء أكان هذا المكان هيئة مدنية أو سياسة أو عسكرية، بل إن خاصيتها الأساسية تكمن في الانتشار والتوزع والتبعثر على كامل الجسد الاجتماعي، فطبيعة السلطة هو سريانها الدائب في كل ثقوب الجسد بأنظمتها المعرفية والاجتماعية والسياسية، إنها رمزية، متوارية، ومنشبكة لا ترى ولا تتكلم كما يقول فوكو، وإنما تمارس ذاتها من نقاط لا يمكن حصرها، ولعل هذا هو السبب المباشر لسيولتها وزئبقيتها التي تتد عن التنظير لها ومحاولة مفهمتها .

إنها ليست شيئاً يملك أو ينتزع كما يصورها الفرع السياسي، لأنها تمارس في إطار علاقات متحركة ومتشابكة ولا متكافئة، لذلك يقلب الطرح الكوبرنيكي لفوكو المعادلة ليجعل من الفعل السلطوي جديلاً صاعداً بعدما كان ينظر إليها كبنية فوقية تمارس من أعلى لأسفل، إذ ليس هناك تعارض قار ومسبق بين صاحب السلطة ومن يقع عليه الفعل " بحيث ينعكس صدى هذا التعارض من أعلى إلى أسفل، وعلى جماعات يزداد ضيقها إلى أن يبلغ أعماق الجسم الاجتماعي، ينبغي أن نفترض بالحري أن علاقات القوة المتعددة التي تتكون وتعمل في أجهزة الإنتاج والأسر والجماعات الضيقة والمؤسسات تكون حاملاً للانقسامات التي تسري في الجسم الاجتماعي بمجموعه حينئذ تشكل هذه الانقسامات العمود الفقري الذي يخترق المنازعات المحلية ويربط بينها..."<sup>5</sup>

فهذا النص يعري الوجود المتأخم للسلطة لا في المستوى السياسي فقط وإنما في الانقسامات العائلية والمنازعات الاجتماعية اليومية، ذلك أن بنية المجتمع نفسه مهياة مثل هذا الانقسام، وخطأ أصحاب الفهم السياسي للسلطة يكمن في إلحاقها أو البحث عنها داخل أقبية المؤسسات والهيئات التنفيذية للدولة، في حين أن وجود هذه السلطة داخل تلك المراكز والمؤسسات هو وجود عرضي اقتضاه النزوع المتأصل للسلطة نحو الاستحواذ والقوة، وهذا يُغفل كثيراً فهمنا للسلطة في بعدها العلائقي الذي أرادها لها فوكو. فليس غريباً أن نتحدث اليوم عن سلطة للطبيب على مريضه، وللخطاب على قارئه، وللشيخ على مريده، وللعدالة على من يحتكمون إليها وللحقيقة على العقل، وللأخلاق على الجسد والوجدان.

جماع القول أن فوكو يقنعنا بأننا أينما ولينا وجوهنا فثمة سلطة، لكن المخيب أنه لا يخبرنا من يملك هذه السلطة بالتحديد، فقط يحسم الأمر بالإشارة إلى

من لا يملكها، لذلك فهو يميّز بين ماكرو- سلطة وميكروفيزياء السلطة... فالسلطة إنّما هي لا نواة واحدة لها، وهي نظام علائقي أكثر مما هي ماهية تمارس من مواقع كثيرة لا يحصرها العقل، إنها موقع ولا موقع في نفس الوقت " هي ذات موقع لأنها ليست على الإطلاق شمولية، لكنها غير ذات موقع لأنها ليست قابلة لأن تحصر في مكان بعينه لأنها منتشرة".<sup>6</sup>

### ب- السلطة استراتيجية لا عنفية

يحدّد فوكو كلمة استراتيجية بأنها جملة " الأساليب المستخدمة في مجابهة ما لحرمان الخصم من وسائله القتالية وإرغامه على الاستسلام، والمقصود حينئذٍ هي الوسائل المعدة لإحراز النصر"<sup>7</sup>

فالاستراتيجية التي تستخدمها السلطة في تدجين القطيع وترويضه تباعد بينها وبين أشكال العنف والقمع التقليدي وإن كانت تحتفظ بهامش منها، إن السلطة اليوم تمارس من خلال التحايل والتحكم والرعاية والعلم... الخ، أي أنها تنبث في الوسائل والخطابات الأكثر موضوعية ورفاهاً للإنسان يجرنا هذا التحليل إلى الوقوف على الأتقنة الزائفة التي تقنعت بها الحداثة ودافعت عنها كمكسب الحرية والعدالة والعقلانية والنزعة الإنسانية، مكاسب اتضح أنها تخضع في الحقيقة لممارسات سلطوية وأغلوطات خطابية لم يكن الغرض منها أكثر من توجيه الإرادة وكبح الجسد.

لذلك فالجانب الاستراتيجي في السلطة أنها ممارسة وليست ملكية أو امتيازاً تماماً كما أنّه ليس للخطاب مؤلفين، وهذه الممارسة لا تسري شاقولياً بقدر ما تنتشر عرضياً، لذلك وبدلاً من التهمة الكلاسيكية الموجهة للسلطة والمتمثلة في القمع والحجب وغيرها من نوعات السلب فإنّ فوكو يُظهر جانباً ظلّ مهملاً في طبيعة السلطة هو دور الإنتاج والتشكيل في مجال المعرفة والفرد والمجتمع، وهو ما أكّده في دراسته حول وسائل وتقنيات الانضباط بالقول: " يجب التوقف عن الاستمرار في وصف مفاعيل السلطة بعبارات سلبية من مثل: إن السلطة تستبعد وتقمع وتكبت وتراقب وتجرّد وتقمع وتخفي، في الواقع إنّ السلطة تنتج، تنتج الواقع الحقيقي، إنها تنتج مجالات من الموضوعات (الأشياء) ومن طقوس الحقيقة، والفرد والمعرفة التي يمكن أن نكونها عنه هما من فعل هذا الإنتاج".<sup>8</sup>

### ج- السلطة إرادة قوة

يذكرنا هذا العنوان بفيلسوف المطرقة **فريدريك نيتشه** الذي يشكّل مع ميكيا فيلي أكثر الوجوه توهّجاً داخل نص فوكو، لكن وقبل الخوض في التفاصيل الذي

يقيمه فوكو مع هذا الثنائي، فما الذي يقصده فوكو بتأكيد الجانب القوي للسلطة؟ ألم نذكر قبلاً أن السلطة علاقة لا عنفية!

يكون نيتشه أول من نحت مصطلح "إرادة القوة" وقصد به "المفهوم الظاهر للقوة الذي بفضلها استطاع فيزيائيوها خلق الله والكون في حاجة إلى تكملة يجب أن تمنحه إرادة داخلية أسميها "إرادة القوة"، أي الرغبة الجامعة في تأكيد القوة".<sup>9</sup> إن الرغبة الجامعة التي يؤكد نيتشه هي ما يجيز نقل القوة كمبدأ فيزيائي إلى حقل التغيير الاجتماعي، فالقوة في استعمالها البشرية تستدعي الإرادة والشروع والرغبة، كذلك يمكن أن تتغل في الطرح الميكانيكي للسياسة بوصفها معركة وصراعاً مستمرين من أجل بلوغ السلطة، فكل السياسات في معياره هي سياسات سلطة. وسيعمل فوكو انطلاقاً من ذلك على تلطيف هذا الحضور الحربي للقوة في الممارسة السياسية من موقع تحديده القوة كتجلٍ وفاعلية أو ميكانيزم وإلى السلطة كنقطة مترحلة خارج الأطر التي حددتها لها خطابات التراث الفلسفي. فاعتبار السلطة إرادة للقوة معناه أننا نقارب للقوة وهي متلبسة بمؤسسة أو حالة اجتماعية أو طقس أو شعيرة، قانون، قيمة، إنه نوع من الاعتقال في قالب من الحياة اليومية يجعل من القوة لا شراً مستطيراً أو عنفاً خالصاً بقدر ما يجعل منها "جمالية وأسلوب وجود حتى وإن بدت سياسياً عنفاً وتسليطاً واستبداداً".<sup>10</sup>

كما لا ينكر فوكو دور ميكيافيلي الذي يعدُّ رائداً للعقلانية السياسية بلا ريب حين اعتبر السلطة علاقة قوة بالأساس، يقول فوكو في هذا الشأن: "وإذا كان صحيحاً أن ميكيافيلي كان أحد القلائل الذي عالجوا موضوع سلطة الأمير من زاوية علاقات القوى - وكان ذلك بلا ريب سبب وقاحته - فقد يتعين علينا أن نخطو خطوة إضافية ونستغني عن شخصية الأمير ونفسر آليات السلطة انطلاقاً من استراتيجية محايدة لعلاقات القوى"<sup>11</sup>. بمعنى أن فوكو يبحث عن السلطة كاستراتيجية محايدة كعلاقة للقوة وهذا المعنى يجده عند ميكيافيلي، لكنه يتجاوز عبر الاستغناء عن شخص الأمير طالما أن السلطة عنده ليست ملكية ولا تستند إلى الذات الفاعلة، إنها - كما سبق وقلنا - آلية حركة وعمل.

## 2- التشكيلات السلطوية

غني عن الذكر أن فوكو قد استعمل مصطلح التشكيلة كتعبير عن شكل من أشكال الانتظام الذي ينعكس فيه نظام التوزيع والتبعثر والاطراد الذي تظهر عليه المنطوقات داخل الخطاب، إذ يمكن تحديدها - أي التشكيلة - بالناظم العام



لظهور واندثار وخصوصية الحقول الخطابية، لذلك يغدو التناص الوظيفي الذي نقيمه لهذا المصطلح بجانب السلطة ذا دلالة مقصودة.

فالممارسة السلطوية التي يعطيها فوكو طابع الخصوصية من حيث إنها تعبر عن ميكانيزمات محددة تتبناها سلطة معينة ينبغي أن لا تحملنا على الوهم فيما نعتقه قرابة للتشكيكية السلطوية بمصطلح الإبيستمية، الأجدر أن فوكو لا يتحدث عن إبيستيمات سلطوية بقدر ما يتحدث عن أخلاق وفعال سلطوية تعطي كل سلطة توصيفا لازماً لكنه هلامي إلى حد ما، فقد يطفئ هذا الوصف في مرحلة تاريخية معينة ويخفت أو يتوارى في مرحلة أخرى فاسحاً المجال لتكتيك آخر أكثر سياقية وتعبيراً عن رغبات السلطة ورهاناتها المستقبلية، وهذه السياقات هي التي تجعل من الاستراتيجية السلطوية فعلاً رعوياً أو حيويّاً أو صفة للحكامة الراشدة التي تمارسها الدولة، على كلّ هذه هي أشكال السلطة الثلاثة كما يراها فوكو والتي هي محور مقاربتنا وتفصيلنا في هذا المطلب.

#### أ- السلطة الرعوية ( Le pouvoir pastoral )

يعتقد فوكو أن الدولة الحديثة قد ورثت تقنية سلطوية قديمة يسميها هو "السلطة الرعوية" والتي تجد تمثيلها في الميراث الكنسي ونمط الصراع الذي كان سائداً مع حركة الإصلاح البروتستانتي بين القرنين السادس والسابع عشر، ويذهب فوكو إلى أن الدولة تعمل ابتداءً من القرن الثامن عشر على الاستحواذ على هذه السلطة الرعوية، إذ الأخيرة كما ينقل فوكو قد وجدت وفقاً لدراسات بول فين في بعض النصوص اليونانية القديمة لكنها عرفت الانتشار لدى العبرانيين تحديداً حيث ارتبطت حركة العبرانيين بمصير الجماعة المتنقلة / المرتحلة أكثر من ارتباطها بالأرض كما هو معروف ما استدعى راعياً يسهر على سلامة وأمن القطيع/المجموعة، لا فرق في ذلك بين أهمية الجماعة ككل أو فرادى إن نجاة فرد قد تعادل نجاة الجماعة بأكملها، ولقد ورثت الكنيسة الغربية هذه السلطة وجعلت منها ركيزتها في حكم النفوس والعمل على إنقاذها.<sup>12</sup>

يحاول درايفوس ورايينوف في قراءتهما لفوكو تحديد السمات الكبرى التي تجعل من السلطة رعوية في رفع لكل أشكال القرابة التي يمكن أن تجمعها بالسلطة السياسية، بالنسبة لفوكو فإن السلطة الرعوية " مكرسة لإنقاذ أرواح الأفراد في العالم الآخر، وهي لا تطالب بتضحية من أحد قبل أن تقبل بها في نفسها، كما أنها لا تُعنى فقط بمصير الجماعة وإنما بحياة كل فرد، وهي تستطيع عن

طريق طقس الاعتراف التوصل إلى استكناه الضمائر والاطلاع على خفاياها، الأمر الذي يؤهلها تأهيلاً كبيراً لتوجيهها والتأثير عليها، وهي أخيراً لا تقوم على مبدأ السيادة والهيمنة وإنما على مبدأ الهبة والنذر، ولا تتسم بطابع الإلزام القانوني العام وإنما تتساق مع الحياة وتولد حقيقة الفرد بحيث لا تجبها حقيقة أخرى<sup>13</sup>.

ومع أن الدولة الحديثة قد نحت بداية من القرن الثامن عشر إلى تحقيق الخلاص الديني تساوفاً مع الاتجاه الفكري العام لحركة التنوير العقلاني المناهضة للكنيسة إلا أنها قد أبقت على الكثير من أهداف وتقنيات السلطة الرعوية وخاصة في احتفاظها بتقنية الاعتراف، وهي تقنية يُظهر فوكو صلتها بالدين والسياسة وعلوم الاستشفاء... الخ ويدرس مظهراتها منذ القرون الوسطى إلى الآن حتى إنه يجعل من الاعتراف الحقيقة الخلاصية العامة التي تقوم على البوح بين المذنب ومُطهره الكنسي لإدماجه مرة أخرى في مملكته، أي من كونه علاقة بين طرفين إلى علاقة للذات بذاتها، فالحقيقة هي نتاج سلطوي للاعتراف لدرجة أننا أصبحنا مع فوكو "مجتمعاً اعترافياً إلى حد الشذوذ فالاعتراف نشر مفاعيله بعيداً، في القضاء، في الطب، في البيداغوجيا، في الروابط الأسرية، في العلاقات الغرامية، في النظام اليومي الرتيب كما في أكثر الطقوس رسمية يعترف المرء بجرائمه، يعترف بخطاياها، يعترف بأفكاره ورغباته يعترف بماضيه وبأحلامه... فإما أن يعترف وإما أن يجبر على الاعتراف، وإذا لم يكن الاعتراف تلقائياً أو ناتجاً عن وازع باطني فإنه يُغتصب، نخرجه من الروح أو نقتلعه من الجسد"<sup>14</sup>.

إن طقس الاعتراف الكنسي الذي تحول إلى تكنولوجيا رقابية للسلطة سيعمل على فضح كل ما هو سري أو شخصي أو ما لا يقال ولا يرى، لقد تمّ تطويع الأفراد وإقناعهم بأن الاعتراف يحررهم يجعلهم يعرفون من هم فـ" الأنا المعترف يمارس عليه الاعتراف إغراء لا يردّ في سبيل الحقيقة إلى درجة التضحية بالذات، فالثقافة التي طوّعت الناس وأقنعتهم هي التي خلقت فيهم رغبة معرفة حقيقة من هم، إلى درجة أنهم أصبحوا يعتقدون في تلقائية وطبيعية الحقيقة التي لا تنتظر غير الكشف والإعلان"<sup>15</sup>.

فهل هو إلا نوع من العلاج السريري الذي يمارسه الطبيب على مريضه أو الشيخ على مريده وحتى المؤول على النص، هذه التقنية (الاعتراف) إضافة لتقنيات أخرى كفحص الوجدان وقيادته... الخ تعمل لهدف سلطوي أسمى وهو أن تتعلم الفرد إماتة نفسه برفضه لذاته وللعالم من حوله " هكذا تصير الرعائية رديفاً للموت مرة أخرى، المرة الأولى كانت لدى المدينة اليونانية عندما تطلب من أفرادها التضحية

بذواتهم لصيانة القانون أو الدفاع ضد الأعداء، لقد قبل سقراط أن يتجرع السم امتثالاً لقانون أثينا بالرغم من خطئه، لكن إماتة النفس في المسلك المسيحي تصبح غاية في ذاتها لأنها تعبر عن الهوية المسيحية نفسها".<sup>16</sup>

لكن هذا النوع من السلطة سيؤول بالتدريج وتحت ضغط الرأسمالية الصاعدة والتعداد السكاني المتزايد وانحسار الديني والأخروي في حياة القطيع إلى تقنيات سلطوية أخرى بحثها فوكو تحت عنوان السلطة الحيوية.

### ب-السلطة الحيوية Biopouvoir

يعرف فوكو السلطة الحيوية بالقول " وأعني بذلك الطريقة المستعملة منذ القرن الثامن عشر في محاولة عقلنة المسائل المطروحة على الممارسة الحكومية والمتعلقة بالظواهر الخاصة لمجموعة من الأحياء الذين يؤلفون جملة السكان: الصحة، نسبة المواليد، طول العمر، الأجناس...ونعلم أي موقع احتلته هذه المسائل بشكل متتام منذ القرن التاسع عشر، وما مثلته باعتبارها مواضيع رهان سياسي واقتصادي إلى اليوم".<sup>17</sup>

رهان السلطة الحيوية هو إدارة الحياة والأحياء بإخضاع الجسد عبر تشريحه سياسياً أو سياسته حيويًا، فقد تبين للسلطة بموازاة الرأسمالية الحديثة ضرورة إحداث مناسبة بين تراكم رأس المال الاقتصادي والتعداد السكاني، حيث لم يعد العيش شأنًا فرديًا تشاركه الرعية أو الشعب الذي لم يكن يخضع حينها لرقابة الدولة ورعايتها، ففي القرن التاسع عشر سوف لن نكون إزاء شعب بمفهوم عصر النهضة، حيث كان غير منتظم، اختياري، بل إزاء ظاهرات محددة قطاعياً هي الظاهرات السكانية التي تستوجب معاملة من نوع آخر يُعنى بالاستشفاء Cohabitation وتنظيم نسب الولادات والوفيات والتغذية والتساكن أو سياسة المكان، لأن الجسد ذاته مكان.

لكن هذا الاشتغال المتزايد على الجسد أو الحنان السلطوي الفياض يخفي تحته سياسة أخرى يسميها فوكو بسياسة الانضباط السلطوي التي تعمل على دمج واحتواء الظاهرة السكانية المتزايدة عبر محورين:

- **أولاً: عبر محور الجسد/ الآلة** " بترويضه وزيادة قدراته وانتزاع قواه والنمو المتوازي لفائدته وطواعيته ودمجه في أنظمة مراقبة فعالة واقتصادية، كل ذلك أملت إجراءات سلطوية تميز أنظمة وقواعد الانضباط: إنها سياسة تشريحية للجسم البشري Anatomie politique، أما **المحور الثاني** الذي تعمل فيه السلطة الحيوية فهو: محور الجنس البشري: والقائم على " التكاثر، الولادات والوفيات والمستوى الصحي،

معدل أجل الحياة، التعمير، مع كل الشروط التي يمكن أن تغير هذه الظواهر، ويتم الاهتمام بها بواسطة مجموعة كبرى من التدخلات والمراقبات الضابطة: إنها "السياسة الحيوية للسكان"<sup>18</sup> Biopolitique، وهذا الحضور المتكاثف للسلطة داخل الصياغات الخطابية المتعلقة بالجسد هو ما جعل مشروع فوكو تاريخاً للجسد ورصداً للطريقة التي يتم من خلالها استثماره مادياً وحيوياً.

لقد كان فوكو مهتماً ببيان هذه الطريقة التي أصبح بها الجسد موضوع رهان سلطوي تمارس عليه شتى ألوان التدجين والتطويع والتعذيب عبر واجهات السلطة ومؤسساتها التي تبدو في الظاهر أبعد الفضائل عن السلطة كالمدرسة والمستشفى والمصنع وهلم جراً، إذ يعتقد فوكو أن المحوري في مشروعه يكمن في رصد عملية تطبيع الجسد عبر جملة الخطابات والمؤسسات التي تنتج وتفصل المعرفة العلمية المتعلقة باحتواء الجسد وضبطه وبالتالي ضبط الكيان المجتمعي ككل باعتباره تكدساً لوفرة من الأجساد.

الحقيقة التي لا شك فيها أن فوكو قد تأثر بداهة برؤى نيتشه التي رأت في تحرير الجسد / السوبرمان إرادة للقوة والسيادة وسلاحاً في المعرفة ضد الميتافيزيقا وانحيازاً لما يسميه بـ "أخلاقيات النشاط الحيوي" المتأصلة في الفرائز والرغبات والتي يتمثلها في جسد الإله ديونيزوسورقصة زورباً وموسيقى فاغنر، حتى إننا نقرأ نيتشه في "مواعظ زرادشت" مخاطباً المستهزئين بالجسد "أما أنتم يا إخوتي فاصغوا إلى صوت الجسد لأنه يخاطبكم بصوت أنقى وأخلص من تلك الأصوات التي تبشركم بالموت إن الجسد السليم يتكلم بكل إخلاص وبكل صفاء... لأقولن للمستهزئين بالجسد كلمتي فيهم: إن واجبهماً ألا يغيروا طرائق تعاليمهم ولكن عليهم أيضاً ألا يهملوا أجسادهم حتى لا يستولي على أسنتهم الخرس"<sup>19</sup>.

ولعل المهمة التي نذر فوكو نفسه لأدائها هي الكشف عن المعوقات السلطوية التي تكبل الجسد من خلال آليات النفي والترويض... الخ، لهذا فهو يعمد في كتاب "المراقبة والمعاقبة" إلى فضح جملة التقانات السياسية والرمزية الخاصة بترويض الجسد عبر التاريخ، حيث يشتمل عرضه "وصفاً كاملاً لآليات الزجر والعقاب والحبس والتخويف وذهنية التحريم والمنع والحجز والمصادرة أو ما يسميه باقتصاديات ومناهج تدبير المكان بما فيها الإجراءات والمساطر والقوانين والنظم والأعراف التي تجعل من الأفراد طبيعين وصالحين في نظر المجتمع من ناحية، وبالتالي فحص

تقنيات تكبيل الروح من أخلاق وقيم وعادات وأعراف تلجم الجسد بخاصة تلك التي تساعد السلطة القائمة في المجتمع على ترويض أفرادها من ناحية أخرى<sup>20</sup>.  
 يتحصّل من جملة ما ذكره فوكو حول السلطة الحيوية أو الإحيائية فكرة الربط بين فعل السلطة والمعرفة، وهو في نظرنا نقلة نوعية لتعرية المخفي من السلطة لظاهر المعرفة العلمية أو التي توصف بأنها كذلك بالاستعارة من البيولوجيا والاقتصاد والرياضيات وعلوم الإحصاء... الخ لضبط المجال العمومي فهمه ليس إقامة تحليلية للسلطة بقدر ما هو تحليل معارف استعالت إلى سلطة تتحكم بالروح والجسد، "والحال أنه إذا كان التشريح الجسدي البيولوجي يهدف إلى تشريح أعضاء الجسد بغاية معرفة وظائفها من جهة كي يتمكن من معرفة آليات اشتغالها ومراقبتها من جهة أخرى، فإن البيولوجيا السياسية لها وظيفة التشريح على مستوى السياسي والاجتماعي والثقافي بما يتحكم في جسد الإنسان وروحه... كي يتم تجريد السلطة من عموميتها وغموضها بالانتقال إلى تحليل مختلف آليات التحكم المعلنة منها والخفية وكذلك أشكال التدبير العلنية والخفية"<sup>21</sup>.

جماع القول أنّ السياسة الحيوية قد تحولت في المجتمع الرأسمالي الحديث إلى تكنولوجيا لتدبير الجسد ومراقبته في شروده وحضوره، في سويته شذوذه، في تبطله واستغلاله، بضبط جملة المعارف والمؤسسات السلطوية التي عملت على تنميط الأذواق وضبط السلوكات وتطويع العلاقات الاجتماعية بالإغراء والإغواء حيناً والحبس والتعنيف حيناً آخر.

إنه تطويع للجسد بادعاء العمل على العناية به بهدف الوصول إلى خلق مجتمع انضباطي تشكل استجابته تداعياً حراً لجملة خطابات ومؤسسات السلطة كالمدرسة والثكنة والعيادة والمصنع والسجن ولذلك فإن المجتمع الرأسمالي عند فوكو هو مجتمع الانضباط والمعيار، مجتمع لا يكتفي بإنتاج السلعة فحسب بل وينتج الفرد الاجتماعي المنتج والمستهلك والمنضبط.

يمكننا الحديث تبعاً لذلك عن المراقبة كواحدة من ثقافات السلطة الفارقة في مجتمع الانضباط وأقوى الاستراتيجيات في ممارسة فن المسافة بين السلطة وموضوعها لأنها تتطوي على التمرکز والاستشراف والقدرة على تشييء المراقب، لذلك يبحث فوكو عن هذه الاستراتيجية داخل السجن عبر نظام "البانوبتيكون PanoPtion الذي يشكل العمارة الأكثر توافقاً وحادثة لمجتمع الضبط كان قد صممه "جريمي بنتام" في القرن الثامن عشر، وهو سجن يتخذ شكلاً دائرياً يتوسطه

برج عالي يسمح بمراقبة كل الزنانات دفعة واحدة في حركة كوكبية تعكس هندسته الوجود الممرز للسلطة و انتشارها في آن واحد ، لقد سمح هذا النوع من المراقبة بإحداث ثورة حقيقية في فعالية الحبس لأنه يعكس دوام الحضور السلطوي في مراقبة الجسد الشاذ، المجنون، النزيل، اللا اجتماعي، المتمرد... الخ ما يمثل مجازاً قوياً للعملية التأديبية للخطاب المهيمن بشتى أنواعه.

ويظل سجن البانوبتيكون مجازاً حضورياً قوياً للمراقبة السلطوية المكثفة في شتى المؤسسات سواءً منها المؤسسات العقابية أو التربوية أو الاستشفائية وحتى تلك المؤسسات التي لم تهيكّل على الطراز الهندسي البانوبتيكوني فإنها تمارس نقطة استشرافها السلطوي انطلاقاً من مركزية خطابية وإدارية تظل فيها السلطة العين الدائمة على الجسد.

ومن ثمرات هذه المراقبة والترويض للجسد ما يطلق عليه "إرفيج جوفمان اسم التحويل Conversion وهي العملية التي تجعل النزيل" يتبنى وجهة نظر المسؤولين أو العاملين في المؤسسة عن ذاته ويحاول أن يلعب دور النزيل المثالي... حيث يُظهر نفسه بمظهر الشخص الذي يخضع حماسه المؤسسي دائماً لتصرف العاملين بالمؤسسة".<sup>22</sup> وفي المبحث الثالث سنفصل هذا اللقاء أو التحالف المعرفي السلطوي لتطويع الجسد.

### ج- سلطة المصلحة العليا أو دولة الحكومة Gouvernamentalité

يأتي هذا التعديل الجديد في مفهوم السلطة كضرورة أملتها الأحداث الطلابية بفرنسا 1968م إضافة لهشاشة العلاقة بين فوكو واليسار عموماً واليسار الجديد خصوصاً، وهو ما جعله يعيد طرح مسألة السلطة انطلاقاً من مفهوم "الحكمانية أو الحكومية" Gouvernamentalité، وبحسب ما يشير إليه هذا المصطلح فإن فوكو يكون قد تدارك التأويل الخاطئ والنقص الذي طبع أعماله السابقة فيما يخص علاقة السلطة بمفهوم الحكم والدولة الحديثة مع أنه لم ينف عن السلطة علاقتها التقليدية بأجهزة الدولة، فقط هو يعمل على تدرية السلطة عبر نقاط لا محدودة ولا منتظمة داخل النسيج الاجتماعي لإبراز لا مركزيتها كما أشرنا لذلك آنفاً، نقرأ له في "إرادة المعرفة": "تعني كلمة السلطة الاستراتيجيات التي بواسطتها تفعل موازين القوى فعلها والتي تتجسد خطتها العامة أو تبلورها المؤسسي في أجهزة الدولة".<sup>23</sup>

إن دراسة السلطة بمعزل عن أجهزة الدولة يتيح لنا أن نفسر بعض الوقائع التاريخية التي تجعل من السلطة آلية أو وصفاً تداولياً أو تشاركياً يعتمل في كيانات ومراكز عدة، حيث تشكّل المقار الرسمية للدولة أحد هذه الكيانات فقط وليس

كلها. يطلعنا فوكو على هذا الحلول الجديد للسلطة بمؤسسة الدولة والحكم في موضوع دراسته للسنة الجامعية 1977-1978م الذي عنون له بـ "الأمن والإقليم والسكان" وكذا مجموعة المحاضرات التي ألقاها عام 1979م بجامعة ستانفورد بالولايات المتحدة الأمريكية تحت عنوان "نحو نقد للعقل السياسي".

فهو يعتقد أن دراسته لفنون الحكم ابتداءً من القرن السابع عشر والمتمحورة حول ما يعرف بالمصلحة العليا للدولة Raison d'état تجعل من الحكمانية " مجموع المؤسسات والعمليات والتحليلات والحسابات التي تسمح بممارسة ذلك الشكل الخاص والمعقد من السلطة والذي يتخذ هدفاً أساسياً هو السكان " <sup>24</sup>. فهذا النص يكشف التعديل الذي طرأ على المفهوم الفوكوي للسلطة من خلال ربطها بجملته المؤسسات والحسابات أو فنون إدارة الحكم.

وكنتيجة للضرورة التاريخية لفنون الحكم وإدارة الدولة فهو يكشف عن العملية التي انتقلت بها دولة العدل L'état de Justice في العصور الوسطى إلى الدولة الإدارية الحديثة L'état Administrative وصولاً إلى دولة الحكومة Gouvernement L'Etat du <sup>25</sup>مشيراً إلى أهمية الأبحاث المتعلقة بأصل الدولة وسلطتها وأنماط الحكم ومختلف عمليات الدولنة L'étatisation للمجتمع، لكن الأهم بالنسبة إليه كراهن سياسي هو حكمانية الدولة الحديثة، التي تتحدد بكتلة من الشعب وبإقليم تمتد عليه وتستعمل معرفة اقتصادية تتناسب والمجتمع المراقب بواسطة جاهزيات الأمن. إن هذا الشكل الحديث للسلطة يجد أصوله في السلطة الرعوية عبر تقنية الاعتراف ولكن بشكل أكثر تضخماً يكاد يشمل كل الوسائل والإجراءات والتقنيات كجهاز البوليس والأمن والصحة ومختلف الحقائق التي تعمل على إنتاجها وتوجيهها لتدعيم العقلائية الاجتماعية السائدة نحو الرعاية المعرضة للظاهرة السكانية.

إن ما يسميه فوكو بالسياسة التنظيمية في الدول الحديثة كان يُعهد بتطبيقها إلى الجهاز التنظيمي المسمى بالبوليس الذي كان من مهامه مساندة قوى الدولة على ضبط النظام العام والسهر على تطبيق القوانين الصادرة عن هيئات توصف بأنها دستورية وعاكسة لإرادة الشعب كالبرلمانات ومجالس الشورى والأمة وغيرها، إضافة لذلك وفي سبيل البقاء تعمل سلطة الحكامة أو الحكمانية وفق ما يسميه فوكو "بالسياسة التنظيمية للحياة" Biopolitique على التخطيط للشأن الصحي الوقائي للسكان بتحسين وسائل المعيشة من مأكول وملبس وسكن وإتاحة فرص العمل وتوفير الرعاية الصحية اللازمة خصوصاً بعد تطور مفاهيم الصحة

العامّة أو الطب الاجتماعي وتحديد السمات البيولوجية والباثولوجية (الطبية) التي كانت تعنى ببلورتها الأبحاث الطبية.<sup>26</sup>

لذلك فإنّ السلطة وهي تعمل داخل جهاز الدولة تكون في حالة استتساخ دائم للتجربة الرعوية عبر تقنية الاعتراف المكثف لاستكناه الذات الاجتماعية وموقعها داخل النسيج العام بالتعرف عليها وتحيين معرفتها عن نفسها ومن ثمّ تملكها كرقم مدجن في سلم العد الديمغرافي، إضافة لذلك فهي تمد بذراع الرقابة والضبط إلى محيط التجربة عبر الوسائل والتقنيات والأجهزة الأمنية التي ذكرناها آنفاً.

إن مأسسة السلطة في الدولة الحديثة إن جاز التعبير ليس انتكاساً عن قاعدة المحايثة والاستراتيجية التي قلنا إنها تشكل جوهر عمل السلطة، وإنما أصبح هدف سلطة الدولة/الحكومة هو تحقيق أفضل وسائل الحكم، لذلك يؤكد فوكو على صيغة الحرية التي ينبغي أن تتمتع بها الذوات المحكومة في سلطة الحكامة. لذلك فرهان الدولة الحديثة هو تسيير التجاذبات التي تقيمها الرعية/السكان سواء في شكلها الرعوي أو عبر هيئاتها شبه المؤسسية كالمجتمع المدني من جهة وسلطة الحكومة من جهة ثانية، ففي الوقف الذي تنزع فيه الأولى إلى حيازة أكبر قدر ممكن من الحرية تعمل الثانية على خفض سقف مطالبها حفاظاً على ما أسماه فوكو بـ "المصلحة العامة" أو "مصلحة الدولة". لذلك لا يمكن الفصل بين علاقات السلطة أو شكل الدولة الحكومة وتمرد الحرية في الدولة الحديثة والتي هي حصيلة لمختلف ممارسات فنون الحكم أو الممارسة الحكمانية pratique de gouvernementaliste.

جماع التحليل الفوكوي لموضوعة السلطة لا يشكل في رأينا نكوصاً أو انقطاعاً عن خصائصها التزمينية التي كان قد أثبتها في مستهل تعريفه لخصائصها، بل إن السلطة ستظل استراتيجية للممارسة والهيمنة لها ميكانيزماتها الخاصة التي تستخدمها كاستجابة نوعية ولينة لظروف تاريخية معينة، لذلك تعاطت السلطة بالاعتراف في شكلها الرعوي والانضباط في شكلها الحيوي وتوسعت لتشمل مختلف فنون الحكم وأشكال الدول، كل هذا يشكل نوبات في سلم الممارسة السلطوية وتحييناً فوكوياً لتمظهراتها عبر حقب تاريخية مختلفة.

### 3- بين السلطة والمقاومة

هناك ربط سببي بين السلطة والمقاومة عند فوكو، فحيث تقوم السلطة تكون مقاومة ومع ذلك أو على الأصح فإن هذه المقاومة لا تقوم خارج السلطة، يقتضي هذا النوع من الترابط ضرورة الأخذ بالطابع العلائقي لعلاقات القوة إذ لا وجود لهذه إلا



بدلالة وجود نقط مقاومة كثيرة، نقط حاضرة في كل مكان تبعا للانتشار الذي تشغله السلطة داخل الجسد الاجتماعي، وهذه المقاومة تلعب مع السلطة دور الخصم وإن كانت الأخيرة تحوز صفة الخصم والحكم.

وبمثل ما تتحدد به السلطة تتحدد المقاومة فهي " ليست جوهرًا، وهي ليست سابقة على السلطة التي تواجهها، إنها مساوية لها في الامتداد ومعاصرة لها " وبناءً عليه " فلكي تقاوم ينبغي لها أن تكون مثل السلطة لها روح الاختراع، ومن الحركة الإنتاجية ما للسلطة"<sup>27</sup>، وهذا لا يعني أنها ليست إلا رد فعل وصدى للسلطة بل " إنها تشكل بالنسبة للسيطرة الأساس ووجهها الآخر المنفصل على الدوام و المعرض للهزيمة اللانهائية ... إنها تشكل على الدوام الطرف الآخر في علاقات السلطة، إنها ترتسم فيها كالمقابل الذي لا يُمخَى، لذا فهي موزعة بطريقة لا انتظام فيها"<sup>28</sup>.

إن نقل إرادة القوة من الدموي إلى الحيوي هو ما يولد فعل المقاومة، فحيثما توجد السلطة توجد المقاومة، لكنها مقاومة داخل السلطة أو ضمن النسيج العام للسلطة وليس خارجها. ولسائل أن يسأل عن جدوى هذه المقاومة طالما أنها لا تمارس نشاطها إلا داخل سيجار السلطة، لكن فوكو ينظر للمقاومة من زاوية أخرى لما يؤكد أن هذا الفهم الذري للمقاومة يقصي المفهوم القطبي للسلطة القائم على حكم ومعارضة، وتأسيسه في مقابل ذلك لمفهوم جديد ذكرناه آنفاً هو مايكرو فيزياء السلطة، ففي كل نقطة سلطوية يولد فعل للمقاومة فليس هناك مكان واحد للرفض ثمة أمكنة كثيرة.

ما يحاول فوكو أن يقوله في كلمة جامعة تختصره عبارة " الهزيمة اللانهائية " لفعل المقاومة بإزاء السلطة ذلك أن الأولى لا يمكن أن توجد في غياب الثانية، فالسلطة هي التي تستدعي المقاومة وتوجدها كبديل استراتيجي عن كليتها وشمولها، وفي أغلب الأوقات تتعدد نقط المقاومة وتتشتت وأحياناً تحدث نوعاً من الصدع المتثقل داخل المجتمع وتوقظ بعض المناطق من الجسد وتحيي بعض أنواع السلوك والتصرفات لكنها لا تلبث أن تستجيب إلى تكتيك بديل للسلطة وهكذا دواليك.

هذا ما جعل الكثير من النقاد يعتقدون أن تحليلات فوكو بشأن السلطة في كتابي المراقبة والمعاقبة وإرادة المعرفة قد عانت من صعوبات نظرية جمّة تتعلق بجدوى المقاومة بل واستحالتها، فالذات المنوط بها فعل المقاومة ليست أكثر من صنّعة سلطوية أُسست ورُسّخت بالتقنيات الانضباطية، وحتى في تحوله إلى دراسة الذات في بداية الثمانينات وتحديداً من خلال مسألة الحكم حيث من الممكن أن

تأخذ هذه الذات حظها في مقاومة هيمنة السلطة والانعقاد من كل أشكال التذويت<sup>29</sup> subjectification والإذابة والتدجين التي تعتمدها السلطة كل ذلك لم يجعل من فكرة فوكو عن المقاومة مشروع عمل أو خلاص، لأنه وبالأخير هناك دائما ذلك الجانب المنتج في السلطة والذي يتيح لها احتواء كل أشكال المقاومة التي ليست إلا نتاجا من نتائج عمل السلطة وتكتيكاتها.

أما الإنجاز الأكبر لفوكو في موضوع السلطة والذي يبقيا غالبية إلى حين فيتعلق بقلب المعادلة التي كانت تنظر إلى السلطة على أنها نتاج للمعرفة من خلال التبريرات الأيديولوجية التي تأخذ صفة الحقيقة تمهيدا لفرضاها سلطويا على المجتمع إلى العكس من ذلك، أي جعل السلطة هي التي تنتج المعرفة وتديرها عبر شبكة من المؤسسات والمقولات كمناهج التربية والتعليم ومعايير الصدق الاجتماعي والأخلاقي ومنظومة الحقائق التي تنشر في المدرسة كما المشفى والسجن أو دور العبادة والقضاء، أي إن السلطة هي التي تنظم عمل الخطاب والعبارة وتحدد مجال المعقولية داخل المجتمع بين ما هو حقيقي وغير حقيقي، عقلاني ولا عقلاني، مجتمعي وشاذ ... الخ، كل ذلك يتم عبر حشد من الاستعارات والمؤسسات داخل المجتمع.

معنى ذلك أن "إرادة الحقيقة" لا تخفي تحتها سوى "إرادة القوة"، ولذلك فإن الحقيقة لا تقوم خارج السلطة بل يمكن اعتبارها تقنية أو اختراعا سلطويا أنتج تحت ظروف قسر وإكراه كثيرة لا لإسعاد البشر أو تمتيعه مب معان مثالية وأخلاقية سامية، وإنما يجعلها أداة للإقصاء والهيمنة والمراقبة والتحكم وهذا ينتج وفق ما يسميه فوكو — "اقتصاد السلطة" الذي يعني من بين ما يعنيه تلك "الطرق التي تسمح ببث أفاعيل السلطة في كامل الجسد الاجتماعي بطريقة متصلة ومتواصلة متكيفة ومفردنة في أن"<sup>30</sup>.

وكون السلطة تلجأ إلى هذا العكاز المعرفي الذي يعتمد ثيمة الحقيقة فلأن هذه الطريقة اللاعنافية في ممارسة السلطة أكثر فاعلية وأقل تكلفة، لذلك فإن لكل مجتمع سياسته للحقيقة وهذا الجهاز يجعل من محاولة عتق المعرفة عن السلطة أشبه بالحلم المستحيل لأن الحقيقة نفسها سلطة.

## خاتمة

إن المزية التي يكتسبها بحث فوكو في تحديده لمعنى السلطة يكون في الانتقال بنا من سؤال ظل مقررًا بين أهله يضطلع بالبحث الجوهري في ماهية السلطة إلى نوع من البحث الذكي الذي لا يحتفل كثيرا بتحديد هذه الماهية، طالما كانت

المهايا في عرفه محبوكة ومصطنعة، إن ما هو جوهرى فيم فهمته للسلطة يكمن في دراستها انطلاقا من خصيصتها العلائقية التي تجعل منها سلسلة متكاملة من الأفعال وردود الأفعال بين طرفين أو أكثر، وحين تصبح السلطة علاقة وعلاقة قوة بالأساس فإن السؤال عن ماهيتها ومواقعيتها واتجاهها يصبح غير ذي جدوى، بل يصبح وصفها بالمحايدة أقرب الأوصاف تعبيرا عنها، على أن تظاهرات هذه السلطة والمتمثلة في سلطة الراعي والسلطة الحيوية وسلطة الحكامة تظل تجليات تتضح بالسلوك السلطوي، فمن التقدم كراعية للقطيع إلى المراقبة والمعاقبة لسلوك الأفراد وانتهاء بالجمع بين الخاصيتين تبقى السلطة جاثمة على السلوك والإدارة ولو في أكثر الأشكال نعومة ورفاها كالتربية والتعليم والخطاب الديني وفي شتى العلوم والمعارف التي تعطى للرعية، وهنا كان لابد أن توجد مقاومة تعمل على تقويض شمولية السلطة وتعديل مزاجها، لكن فوكو لا يعطي هذه المقاومة أي دور إيجابي باعتبارها منتجا سلطويا ومفعولا من مفاعيلها أي أن السلطة هي التي توجد المقاومة لا كخصم لها ومتهدد لوجودها وإنما كمكمل لعملها لإخفاء وأحديتها وشمولها وهذا الدور يعطي السلطة أفضلية النصر والبقاء وينتهي بالمقاومة إلى الفشل الذريع باستمرار. وهنا بالضبط ستستدرك الفلسفات اليسارية وآداب ما بعد الكولونيالية على الرؤية الفوكوية شديدة الإقفار لعمل المقاومة بالدعوة إلى نصوص مقاومة تدخل في خانة الاجتجاج التنظيري البناء لنصرة الحقيقة والعدالة والحرية.

## الهوامش

- 1- أنجز هذا الحوار مع (بانيني C. panier) وواطى (P. Watté) لفائدة المجلة الجديدة الفرنسية بتاريخ: 10 / 05 / 1981م ونشر بعد ذلك في كتاب: أقوال وكتابات، باريس، غاليمار، 2001م، ص1566 - 1571.
- 2 - درايفوس ورايينوف، ميشال فوكو مسيرة فلسفية، ت: جورج أبي صالح، (دط)، مركز الإنماء القومي، (دت)، ص 265.
- 3- M. FOUCAULT, Gilles Deleuze, Les intellectuels et le pouvoir, l'arc, n49: 2e trimestre 1972, 19 - 20
- 4 - ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية (إرادة المعرفة)، ت: جورج أبي صالح، مراجعة: مطاع صفدي، ج1، ط1، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990م، ص 101.
- 5- ميشال فوكو، في السلطة، ت: عبد السلام بن عبد العالي، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 33، مركز الإنماء القومي، بيروت 1985م، ص 62، أو: فوكو، جنيالوجيا المعرفة، ت: السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، ص 108.
- 6 -جيل دولوز، المعرفة والسلطة. مدخل لقراءة فوكو، ت: سالم يفوت، (دط)، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، (دت)، ص 33.
- 7 - ميشال فوكو، إرادة المعرفة، ص 102.
- 8- ميشال فوكو، المراقبة والمعاقبة (مولد السجن)، ت: علي مقلد، ط1، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990م، ص 204.
- 9- Nietzsche, volonté de puissance, T. I. Gallimard, 1947, 309, P 293.
- 10 - حازم صياغة، نيكولو ميكيافيلي، مدخل أولي، مجلة الفكر العربي، العدد 22 سنة 3، سبتمبر/أكتوبر 1981م، ص 403.
- 11 -ميشال فوكو، إرادة المعرفة، ص105.
- 12 -محمد علي الكردي، نظرية المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، (دط)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، (دت)، ص 416.
- 13 -درايفوس ورايينوف، ميشال فوكو.مسيرة فلسفية، ص 305.
- 14 -ميشال فوكو، إرادة المعرفة، ص 79.
- 15 -عبد العزيز العيادي، المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، رسالة مقدمة لنيل شهادة الكفاءة في البحث، إشراف: فتحي التريكي، جامعة تونس الأولى، السنة الجامعية 1988/ 1989م ص34.
- 16 -مطاع صفدي، نقد العقل الغربي. الحداثة وما بعد الحداثة، (دط)، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990م، ص 103.
- 17 - دروس ميشال فوكو، ترجمة: محمد ميلاد، ط 2، دار توبقال، الدار البيضاء، 1994م، ص 59.

- 18- ميشال فوكو، إرادة المعرفة، ص 141- 142.
- 19 - نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ت: فليكس فارس، (دط)، دار العلم، بيروت، (د.ت)، ص 56- 57.
- 20 - حسن المصدق، البيولوجيا السياسية بين سلطة المعرفة ومعرفة السلطة2، العرب الثقافي، العدد 11، أوت 2007م، ص 2.
- 21 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 22- بيل أشكروفت وآخرون، دراسات ما بعد الكولونيالية. المفاهيم الرئيسية، ت: أحمد الروبي وأيمن حلمي وعاطف عثمان، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2010م، ص 331.
- 23 - ميشال فوكو، إرادة المعرفة، ص 101.
- 24- Michal Foucault, la Gouverne mentalité, In, magazine Littéraire, N 269, 1989, p 102.
- 25 - بالنسبة للشكلين الأولين للدولة فإن حكومة العدل شاعت في الأوساط الإقطاعية التي تتناسب مع مجتمع يحكمه القانون (إما عادات أو أعراف أو قوانين مكتوبة...الخ) أما الدولة الإدارية فهي الشكل الذي حكم المجتمع الانضباطي حيث تقوم سياستها على الحدود. انظر: الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، ص 244.
- 26 - محمد علي الكردي، نظرية المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، ص 420 و. Résumé du cours, op, ciTpe, 101 - 104.
- 27- ميشال فوكو، هم الحقيقة، ت: مصطفى السناوي، مصطفى كمال، محمد بولعيش، (دط)، منشورات الاختلاف، الجزائر 2006م، ص 57 - 58.
- 28- ميشال فوكو، جنالوجيا السلطة، ت: أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، ط1، دار توبقال، الدار البيضاء 1988م. ص 109.
- 29- حسين يوسف بوكبر، مفهوم المجتمع المدني عند ميشال فوكو بين تقنيات الحكم وإمكان المقاومة، تبين، ع 5/18، خريف 2016م، ص 38 - 39.
- 30- الإنسان في عصر ما بعد الحداثة، ع 46، مايو 2013، مجلة الرافد، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ص 65.